عمـــــــر الخيام

بين التصوف . والفلسفة . والحياة

للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

تقع حياة الخيام ، أو « حكيم نيسابور » كما يسمى — فى القرنين الخامس والسادس للهجرة . وكان القرن الخامس فى ايران يمـوج بمختلف التيارات الفكرية المتعارضة . فهو عصر القشيرى والجوينى والغزالى من أئمة علوم الشرع ، وعصر الوزير نظام الملك من أئمة السياسة والإصلاح . وعصر الحسن الصباح وجماعات الباطنية والأباحية وأمثالهم من أهل الفساد . وعصر تلاميذ ابن سينا فى الفلسفة . وهو أيضا عصر عمر الخيام الذى يقف إلى جانب أكبر الشخصيات .

ونحن لا نكاد نعرف عن حياته الخاصة شيئا ، وأغلب الظن أنه كان من أسرة مغمورة . ولا يخلو إسمه من دلالة على أصل أسرته وصناعتها . وإن كان البعض يزعم أن تسميته الخيام هى تسميته كشاعر . ولكن الخيام وجد من يرعاه حتى تعلم ونبغ . فعرف نظام الملك . بل يقال أنه كان زميلا له فى الدراسة .

وقد استعان الوزير المصلح بسعة معارف الخيام فى علم الفلك فكلفه هو وغيره من أعيان المنجمين باصلاح التقويم للسلطان ملكشاه السلجوقى . وكان علم الخيام سببا فى أن عرفه الملوك واستعانو بعلمه وأولوه من التعظيم مالا يكون إلا للعلماء . وقد التقى الخيام أيضا بالإمام أبى حامد الغزالى . فناظره الغزالى فى مسائل من الفلسفة . ويرى أكثر من باحث أن بعض آراء الغزالى فى نقد الفلسفة والفلاسفة موجه للخيام ، وأن بعض رباعيات الخيام موجه للغزالى .

واذن لم يكن الخيام شاعرا فحسب بل كان فيلسوفا . وهو يعتبر من أكبر ممثلى العلم اليونانى وخليفة ابن سينا فى فنون الحكمة . كما يعد فلكيا ذائع الصيت . ورياضيا يشهد له مؤرخو العلم الأوربيون بأنه من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى . وقد نشر كتابه ، فى علم الجبر والمقابلة فى أوروبا منذ أكثر من قرن كما نشرت هناك بعض رسائله الفلسفية ولا يزال بعض كتبه فى الهندسة والطبيعة وغيرهما محفوظا فى نسخته الخطية فى دور الكتب بأوربا

ولكن شخصية الخيام قد أحاط بها من الحكايات ما أحاط بعظماء المفكرين . من ذلك ما يحكى من أمر الميثاق الذى كان بينه وبين الحسن الصباح ونظام الملك ، وهم ما يزالون فى المكتب ، بأن من صار منهم ذا شأن يأخذ بناصر صاحبيه ، فأسعد نظام الملك حظه فصار وزيرا مصلحا ، وغلبت على الصباح شقاوته فصار سفاكا قاسيا ، وقدر للخيام أن يعيش عالما سعيدا بالحياة الهادئة المتواضعة !

أما الأهم من ذلك كله فهو هذه الرباعيات التى تنسب للخيام والتى جعلته معروفا فى العالم كله ، وجعلت له مكانا كبيرا فى الفكر الإنسانى . ونسبة هذه الرباعيات للخيام مثار مشكلة تاريخية لم يصل العلماء بعد إلى حلها . فبعض المؤرخين الأولين لا يعرفون من أمر الخيام إلا أنه كان فيلسوفا وعالما ، وهم لا يذكرون له شعرا فضلا عن الرباعيات بما فيها .

ويدل كلامه فى كتبه على ايمان بأصول الدين ، يقوم على العلم والبرهان.

بل يروى من أخبار وفاته ما يدل على الإيمان ، فقد حضرته الوفاة وهو يتأمل كتاب الشفاء لابن سينا ، فدعا الأوصياء وكتب وصيته ، وقام وصلى ولم يأكل ولم يشرب . حتى إذا صلى العشاء الآخرة سجد وكان يقول فى سجوده : « اللهم تعلم أنى عرفتك على مبلغ إمكانى ، فاغفر لى ، فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك » ثم أسلم روحه . ولكن بعد أن توفى الخيام بأكثر من قرن بدأ بعض العلماء يتهمه بمخالفة الشرع ، فمنهم من يشير إلى رباعيات له فى التصوف ، وقف عليها بعض الصوفية فنقلوها إلى طريقتهم وتحاضروا بها فى مجالسهم ولكن باطنها مضاد للشرع . ومنهم من يذكر له رباعيات تنزع إلى الشك والإباحة ثم أخذت تظهر مجموعات من الرباعيات منسوبة له ولم يزل حجمها يتضخم حتى بلغت عددا كبيرا ، ومعظمها

متشابه فى الفكرة والموضوع ، وقد لا يخفف من ثقل ما يشوبها من تكرار الا تنوع صورة التعبير فيها تنوعا بارعا متجدد الطرافة . والا عمق الفكرة ونفاذها وضربها على أوتار حساسة فى النفس البشرية ، وتناولها أشياء فى غاية التناقض ، من رباعيات تنحو نحو الشك والدعوة إلى اللذة وأخرى تنحو نحو الإيمان والحب الالهى وتنزع منزع الزهد والتصوف.

ونظرا لأن الخيام كان فيلسوفا عالما وأنه لم يقم دليل قاطع على أن هذه الرباعيات من شعره حقيقة ، ولا دليل قاطع على براءته منها ، فإن الباحثين قد اختلفوا فى أمرها — كالمستشرق الألمانى شيدر ، من لا يرى فى الخيام إلا أنه عالم فيلسوف فحسب وينكر نسبة الرباعيات إليه انكارا تاما ويعتبرها لخيام أسطورى اعتبر رمزا للالحاد والمادية، ومنهم من ينسب إليه الرباعيات الصوفية ويعتبر غيرها منحولا باسمه ، ومنهم من يؤول الرباعيات التى تتحدث عن الخمر والحب على أنهما رمز للفكر الحر أو للهيام فى محبة الله ، كما فعل المستشرق الفرنسى نيقولا ، ولكننا إذا صرفنا النظر عن المجموعات الكبيرة للرباعيات وشككنا فى نسبتها للخيام فإن فى كتب العلماء رباعيات منها منسوبة إليه على كل حال . ولا عجب أن تكون للخيام رباعيات، لأن الرباعيات كانت نوعا أدبيا معروفا فى عصره وقبل عصره ، وقد اصطنعه الفلاسفة والصوفية وكثيرون ممن تكلموا فى الحكمة الدينية والدنيوية . ويؤخذ من كلام المؤرخين عن الخيام ما يدل على أنه كان ضيق الروح ضنينا بحكمته حاد المزاج . وهذا من علامات التشاؤم . وكانت روح العصر كله روح انحلال روحى وخلقى ، حتى لقد صارت النزعة الإباحية فلسفة انتحلها المفسدون وروجوا لها بأدلة خادعة وشبه باطلة .

مهما يكن من شىء فإن قيمة الرباعيات تنحصر فى أنها تعبر عن أحوال ونزعات انسانية . ولا يصح أن يستلفت نظر الإنسان فيها ما يجده من دعوة إلى المتاع قبل إنتهاء هذه الحياة الفانية بقدر ما يجب أن يستلفت نظره ما فيها من صراع نفسى ، من شعور بالحياة فى مشكلتها الكبرى وسرها العميق ، وما فيها من نزعات التصوف والمحبة لله . وهى إذا كانت تعبر عن روح الشك فى الحقائق فإن

هذا تنبيه على غرور المخدوعين الذين يزعمون أنهم بلغوا إلى معرفة الحقيقة مع بعدهم عنها ، وإذا كان فيها دعوة للمتاع واعتراف بالذنب فذلك لا يخلو من تشنيع على أهل الرياء والنفاق الذين يتظاهرون بالفضيلة وتعظيم الشرع ، وهم يفعلون غير ما يقولون وإذا وجدنا فيها تعبيرا عن الحيرة أمام سر الحياة ومجرى الأقدار ، ففى ذلك إشارة إلى من يدعون معرفة ذلك السر المكنون.

فنحن إذا وجدنا رباعية تدعو إلى القيام فى السحر والمبادرة للشراب فإننا نجد رباعية كهذه : « يارب لو كانت ذنوبى ملء الأرض فإنى آمل أن تأخذ بيدى ، لقد قلت أنك آخذ بيدى يوم العجز ، فلن أكون أعجز منى اليوم ، فخذ بيدى الآن ؟ » أو كهذه الرباعية « رب نجنى من الحساب فى القليل والكثير ! ونجنى شر نفسى لأشتغل بك . وما دام عقلى معى فإنى أعرف الخير والشر فأسكرنى بحبك حتى أتخلص من الخير والشر ! » وغير ذلك من الرباعيات التى تتحدث عن المحبة الألهية وعن أنها السبيل الوحيد للنجاة .

لقد اشتهر الخيام فى الشرق بأنه شاعر ماجن ، وغفل الشرق عن الخيام العالم الفيلسوف . أما فى الغرب فقد عرف الخيام فيلسوفا وشاعرا فى وقت واحد . وقد وجد من الباحثين من يقدر له جهوده فى العلم والحكمة ومن الشعراء والمفكرين من أعجب بآرائه من حيث موضوعها ومن حيث صورتها الفنية .

ولقد مكن للخيام فى نفوس الأوربيين أن كل رباعية تعبر عن فكرة كاملة فى صورة قصيرة ساحرة من الناحية الفنية ومن منا يقرأ رباعية كهذه ثم لا يعجب بها ؟ .

« يقال إن الحجر بفضل الصبر ، وهو مطمور فى أعماق الأرض ، يستطيع أن يتحول إلى زمرد — نعم هو يستطيع ذلك ، لكنه يستطيعه بدم قلبه » .

وقد توفر على دراسة الخيام كثيرون من الباحثين الأوربيين فى حماس شديد ، وكان أول من تنبه إليه وترجم شيئا من رباعياته هم المستشرقون الألمان منذ ١٨٢٧ ، ثم طار اسمه فى أوربا وأمريكا منذ حوالى قرن بعد أن ترجم الشاعر الانجليزى فيتزجيرالد بعض رباعياته التى تدعو الى متاع الدنيا شعرا انجليزيا . ثم كثرت الترجمات لرباعياته إلى كل اللغات ، وأخذ الخيام مكانه فى الأدب العالمى . : ومن المستشرقين

مثل فريدرنج فون روزن من ترجم الرباعيات شعرا ألمانيا ساحرا احتفظ فيه بنظام القافية فى الألمانية كما هى فى الفارسية وبوب الرباعيات بحسب الموضوعات التى تتناولها .

والذى خلب لب الأوربيين فى الرباعيات صدقها فى تصوير موقف الآدمى فى هذه الحياة وتصوير الصراع بين شوق الإنسان إلى الدنيا وبين شوقه إلى ما بعدها ، وخوفه من الله مع أمله الوطيد فى سعة رحمته ، وبيان مأساة الحياة الإنسانية وغموض سرها الذى ينتهى العمر من غير أن يعرف الإنسان منه شيئا ، وتصوير هذه الحيرة التى تساور الإنسان أمام تصرفات الأقدار .

وإذا كان الباحثون الأوربيون يشيدون بفضل الخيام فى الفلسفة والعلم فهم يعجبون خصوصا بعبقريته الشعرية ، وطرافة تفكيره ، وقد بلغ من تحمسهم له أن تأسست فى لندن جمعية اتخذت لها ناديا أسمته نادى عمر الخيام ، ومن المعجبين به من زار قبره فى نيسابور .

وفى سنة ١٨٩٣ ذهب أحد أعضاء الجمعية إلى نيسابور ، وجاء ببذور من الورد النابت عند مقبرة الخيام ثم استنبتت هذه البذور ، فأنبتت وردا أحمر ، وضعته الجمعية على قبر الشاعر الإنجليزى فيتز جرالد الذى نقل إلى الإنجليزية شعر الخيام .

وليس من شك فى أن الخيام كان انسانا حساسا ، ومفكرا طريفا يحار الإنسان فى الحكم عليه ، فكثير من الرباعيات التى تنسب له ، يحتمل التأويل على أكثر من وجه ، ومن الباحثين الأوربيين من يعتبره رمز الروحانية ، وشاعر الحب الآلهى ومنهم من يرى فيه رمز المادية وشاعر الفسق والمجون .

لكن فى رباعية للخيام هذا البيت :

« كل يريد أن يجعلنى على مذهبه ، ولا حق له فى ذلك ، لأن لى مذهبى » .

وإذا كان الخيام هو ذلك الشاعر الشاك المتحير ، المسرف على نفسه فلا عجب أن يتحير المفكر ، ولكن العجب أن يظن أنه قد استقر فى مهاد اليقين مع أنه متمكن فى عالم الأوهام ولا عجب أن يسرف الإنسان الضعيف على نفسه بل العجب أن يصر على اسرافه ، لكن الخيام كما تصور الرباعيات كان انسانا بالمعنى الصحيح فكر فشك ثم آمن وأناب . وما أجمل قول الله تعالى :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » .